



yehiatrakhawy@hotmail.com

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

.....

.....

هامش عن الذكورة والأنوثة والإبداع والعدوان

من الصعب أن ينتهي هذا العرض المحمل بالثقل البيولوجي دون أن نواجه تحديا صريحا صادرا من نتائج الأبحاث المتعلقة بالسلوك العدوانى وما لوحظ من مصاحباته من ارتفاع فى نسبة هرمون الذكورة (التستسترون Testosterone) فى الدم، فقد ثبت أن مستوى هرمون التستسترون فى الدم يتناسب تناسباً طردياً مع السلوك العدوانى فى عديد من حيوانات التجارب حتى أصبحت هذه المشاهدة من الحقائق العلمية التى لاجدال فيها، وقد فسرها بعضهم تفسيراً تطورياً يشير إلى أن الذكر الأقوى عدواناً هو الأقدر جنسياً، وبالتالي فهو الأضمن للتناسل وتأكيد قوى النسل القادم، ومن ثمّ حفظ النوع غير أن هذا التفسير الاجتهادى لم يقنع الكثيرين.

ذهب آخرون إلى التعمق فى دراسة شكل هذه العلاقة وارتباطاتها "كسبب ونتيجة" وقد وجدوا أن إثارة السلوك العدوانى فى ذاته يضاعف مستوى هذا الهرمون الذكوى فى الدم صعوداً إلى خمسة أضعاف، مما جعل احتمال أن تكون هذه الزيادة هى نتيجة للسلوك العدوانى وليست سبباً له.

ومع احتمال صدق هذه التفسيرات من زاوية بذاتها، إلا أن الأمر يحتاج لمزيد من الإيضاح الذى يمكن أن نتناوله من منطلقين كالتالى:

أولاً: إن السلوك العدوانى ليس مرادفاً لغريزة العدوان ولكنه أحد تجلياتها، وهو الشكل الظاهر لها، أما الغريزة نفسها فقد يكون لها تجليات أخرى غير السلوك المعروف بالعدوانية، وأيضاً قد يكون لها أسميناء العدوان الإيجابى ارتباطات بيوكيميائية أخرى غير السلوك العدوانى الضار المتعارف عليه لمثل هذه الدراسات.

ثانياً: إن السلوك العدوانى عند الرجل (الذكر) انبعاثى ظاهر يتعلق ببقاء الفرد أساساً ثم النوع، أما السلوك العدوانى عند الأنثى (المرأة) فهو احتوائى ملتهم أساساً يتعلق ببقاء النوع أصلاً باعتبار أن الذكر يقوم بالدفاع الأول، ويمكن أن تدعم ذلك مراجعتنا لظهور أقصى أنواع السلوك العدوانى عند الإناث (القطة مثلاً) عند تهديد أطفالها حديثى الولادة بوجه خاص، أى أن الحفاظ على النوع (أطفالها) يثير لديها العدوان الصريح مباشرة.

ثبت أن مستوى هرمون التستسترون فى الدم يتناسب تناسباً طردياً مع السلوك العدوانى فى عديد من حيوانات التجارب حتى أصبحت هذه المشاهدة من الحقائق العلمية التى لاجدال فيها

فسرها بعضهم تفسيراً تطورياً يشير إلى أن الذكر الأقوى عدواناً هو الأقدر جنسياً، وبالتالي فهو الأضمن للتناسل وتأكيد قوى النسل القادم، ومن ثمّ حفظ النوع غير أن هذا التفسير الاجتهادى لم يقنع الكثيرين.

إن السلوك العدوانى ليس مرادفاً لغريزة العدوان ولكنه أحد تجلياتها، وهو الشكل الظاهر لها، أما الغريزة نفسها فقد يكون لها تجليات أخرى غير السلوك المعروف بالعدوانية

وعلى نفس القياس يمكن تصور الفرق بين إبداع الرجل وإبداع المرأة، الأمر الذى أشرت إليه فى دراسة سابقة^[3] حيث أكدت على اختلاف المرأة عن الرجل اختلاف بداية وليس اختلاف هدف أو غاية وجود، كما أوضحت أن عجز التاريخ عن أن يرصد للمرأة تفوقا أو مساواة فى الإبداع مع الرجل لا يمكن أن يفسره القهر الاجتماعى والاقتصادى الذى لحق بالمرأة فحسب، وإنما التفسير الذى طرحته هناك كان يتعلق بأن إبداع المرأة وقيامها بالدور الأهم فى الإنجاب: لم يحسب لها فلم يوضع فى الاعتبار أصلا، لأنه لم يكن فى بؤرة الانتباه، مع أنه إبداع حيوى أساسى، فهو: إبداع الإسهام فى التطور: “إفراز للحياة وليس بديلا عنها”، ثم يأتى إبداعها بالرموز والعلامات بعد ذلك نتاجا طبيعيا لتكاملها وليس بديلا انشاقيا عن التكامل، كما يحدث عند الرجل فى بداية الأمر، وهذا يتفق مع مقولة وينيكوت^[4] التى كانت أحد الأسس التى بنتت عليها ذلك الفرض، وهى:

.... أن الرجل “فاعل” -ابتداءً - “ليكون” **to do ==> to be** “،”

أما المرأة فهى “كائنة - أصلاً - لتفعل” **To be ==> to do** “”

كما أن هرمون التستسترون لا يصح أن يعتبر هرمونا ذكوريا مجردا، فهو موجود فى الإناث من إفراز قشرة الغدة فوق الكلوية، كما أنه قد ثبت أن نسبته فى الإناث مسئولة مباشرة عن كفاءة الحياة الجنسية لدى المرأة، كما أن له وظيفة بنائية أيضية (ميتابوليزمية metabolic) كذلك. وهكذا نعود لنؤكد أن دراسة الجذور الغريزية والبيولوجية للعدوان وتطوره ينبغى أن تأخذ فى الاعتبار كل مظاهر السلوك على سائر المستويات، الأدنى فالأرقى.

كما نؤكد مرة ثانية أن الفروق بين الجنسين هى فروق بيولوجية دالة، ولكنها فروق بداية مسيرة وليست فروق غاية ومصير.

تطبيقات باكرة ومتابعات:

1- لاحظت أن بعض الأمراض النفسية، الدورية، خاصة الطيف الفصامى (أخطر إبداع مرضى) تتناوب مع الإبداع الخالقى بوجه خاص، بمعنى أن هؤلاء المرضى إذا أبدعوا فى فترات الإفاقة تميزَّ إبداعهم بالأصالة والاقترام وجرعة أكبر من الغرابة، كما لاحظت نفس الملاحظة ولكن بدرجة أقل بالنسبة لحالات صرعية معينة (والتاريخ يشير لمثل هذا التبادل أيضا فى حالة ديستوفيسكى ونيثشة مثلا). مما جعلنى أفكر فى التكافؤ الوظيفى العكسى وراء هذا التبادل، وأبحث عن البديل الثالث فى الفترات الخالية من الصورتين، وكان هذا البديل الثالث هو العدوان المباشر بصور مختلفة.^[5]

2- فى العلاج الجمعى كانت صور التعبير عن العدوان بمختلف أشكاله فى جو من “سماح” مسئول: ينفى احتمال السادية الانشاقية، وكان مما يصاحب هذه النقلة -أحيانا- علامات بداية الولادة لإعادة الخلق الذاتى من جديد، مع اختفاء الأعراض.^[6] هذا مع التذكرة بأن تحريك العدوان فى أزمت النمو، ليس مرادفا للسلوك العدوانى دفاعا أو هجوماً.

3- فى علاج بعض حالات اضطراب نمط الشخصية (وخاصة الشيزيدى منها، النوع الرقيق الحساس بوجه خاص) كان ما يتقجر من وراء هذه الرقة بعد المرور “بالمأزق العلاجى Therapeutic Impasse” فى العلاج الجمعى خاصة: هو طاقة عدوانية وافرة لا يفسرها إلا التغير الذاتى الجوهري أو الطاقة النائرة المسؤولة بما نغنيه بالإبداع الخلاق.^[7]

4- أثناء الإشراف على عدد من الرسائل الجامعية المتضمنة لخطوات تتطلب الحسم بالرأى

إن السلوك العدوانى عند الرجل (الذكر) انبعاثى ظاهر يتعلق ببقاء الفرد أساسا ثم النوع، أما السلوك العدوانى عند الأنثى (المرأة) فهو احتوائى ملتزم أساسا يتعلق ببقاء النوع أصلا باعتبار أن الذكر يقوم بالدفاع الأول

اختلاف المرأة عن الرجل اختلاف بداية وليس اختلاف هدف أو غاية وجود

أن عجز التاريخ عن أن يرصد للمرأة تفوقا أو مساواة فى الإبداع مع الرجل لا يمكن أن يفسره القهر الاجتماعى والاقتصادى الذى لحق بالمرأة فحسب، وإنما التفسير الذى طرحته هناك كان يتعلق بأن إبداع المرأة وقيامها بالدور الأهم فى الإنجاب

أنه إبداع حيوى أساسى، فهو: إبداع الإسهام فى التطور: “إفراز للحياة وليس بديلا عنها”، ثم يأتى إبداعها بالرموز والعلامات بعد ذلك نتاجا طبيعيا لتكاملها وليس بديلا انشاقيا عن التكامل

الشخصى بمعنى الترجيح الإبداعي لتفسير جديد، أو ل طرح الفروض، من خلال معايشة فينومولوجية ذاتية، كان المعوق الأول للباحث هو العجز عن العدوان، وبتعميق أكثر أو بتعبير أدق: الخوف من العدوان، وكان تدريبي لطلبتى لتخطى هذه الخطوة هو الممارسة الجسور لعبور هذا الخوف، وقد استطاع أغلبهم أن يحترم ملاحظتى هذه وحقق انتصارا مقداما بما يشبه العدوان.

5- فى خبرتى الشخصية كان أهم ما ساعدنى على اتخاذ موقف نقدى مغامر من أية مقولة أو بحث أو معلومة مطبوعة أو شائعة مسلم بها مهما كان مصدرها أو قائلها هو اجتيازى مرحلة الخوف من العدوان، إلى مرحلة التمكن من العدوان، وطمأنيتى للقدرة على ممارسته بسيطرة مناسبة على حساب القديم لصالح الجديد والآخر فى آن واحد، وأعتقد أن مما ساعد على ذلك مباشرة هى التجربة الخبراتية من خلال ممارسة علاجية طويلة فى مجال نوع العلاج الجمعى الذى أمارسه، والذى قمت فيه ومن خلاله بأبحاث متنوعة.^[8]

المتابعات النقدية (فى الأدب)

خلال العشر سنوات الأخيرة، صدرت لى أعمال نقدية متعددة، رحت أبحث فى طياتها عن بصمات هذه الدراسة عن العدوان والإبداع، فاكشفت أننى لم أعرض لها صراحة بأى قدر من المباشرة، وفرحت أننى لم ألترم بتحقيقها، بل لعلى نحييتها جانبا بعيدا عن ظاهر وعيى بشكل ما.

لكن ثمة ملاحظات جديرة بالإشارة فى بعض هذه الأعمال، لا بد وأن تدل على موقفي، بقدر ما تنبّه إلى تحديد يمنع الخلط المحتمل من جراء تداخل المستويات وغلبة المضامين الشائعة، وأورد بعض هذه الملاحظات التى رصدتها من خلال هذه المراجعة:

1- إن غياب السلوك العدوانى من عمل ما، مثلما أوضحت مباشرة فى قراءتى لرواية "الأفيال" لفتحى غانم^[9] لا يستبعد زخم طاقة العدوان التى احتواها .. وقد وصلنى أن هذه الطاقة هى التى حركته فى إبداع هذا العمل ليتحقق هذا العمل المنتمى للإبداع الخلاق، بغض النظر عن خلو المضمون من صريح الفعل العدوانى، كما أشرت فى النقد.

2- إن علاقة سمات الكاتب الشخصية، وخاصة فيما يتعلق بالجانب العدوانى فيها، تكاد لا ترتبط مباشرة لا بنوع الإبداع (خالقى/تواصلى)، ولا بقدرته على تضمين عمله بما هو سلوك عدوانى صريح، ففى حين بينت فى قراءتى لرباعيات نجيب سرور أن ثمة تناسبا طرديا بين عدوانيته (شخصيا) وبين جرعة الهجوم الحاد المتلاحق الوارد فى رباعياته هذه، أشرت- على الجانب الآخر- إلى قدرة نجيب محفوظ (فى لىالى ألف ليلة خاصة) على تحريك القتل الإيجابى والسلبى فى كل اتجاه، الأمر الذى يكاد يتناسب عكسيا مع دماثته شخصيا وسماحه.

3- ضبطت نفسى - شاعرا - متلبسا بوصف القتل بالفروسية^[10] :

القتلُ فعلٌ فارسٌ،

حتماً يموتُ إن ظمَّ،

لكن دسَّ السمِّ فى نبض الكلام

قتلُ جبان

5- فىما يتعلق بحركية الإبداع فى علاقته بالعدوان ما يرتبط بإسهام هذا المنطلق فى تفسير وتقييم

كانت أحد الأسس التى بنيت

عليها ذلك الفرض، وهى:

.... أن الرجل "فاعل" -

ابتداءً- "ليكون" " to do

to be "=>".

أما المرأة فهى "كائنة -

أحلا - لتفعل" " To be ==>

"to do

أن هرمون التستسترون لا يصح

أن يعتبر هرمونا ذكوريا

مجردا، فهو موجود فى

الإناث من إفراز غدة الغدة

فوق الكلوية، كما أنه قد

ثبت أن نسبته فى الإناث

مسئولة مباشرة عن كفاءة

الحياة الجنسية لدى المرأة.

كما أن له وظيفة بنائية

أيضية (ميتابوليزمية

(metabolic

نؤكد مرة ثانية أن الفروق

بين الجنسين هى فروق

بيولوجية دالة، ولكنهما فروق

بدائية مسيطرة وليست فروق

خاتمة ومصير

لاحظت أن بعض الأمراض

النفسية، الدورية، خاصة

الطيفى الفصامى (أخطر

إبداع مرضى) تتناوب مع

الإبداع الخلقى بوجه خاص

بعض ما يحيط قضية **الحدائة** كما تتداولتها الآراء نقدا: قبولاً ورفضاً: ذلك أن الأعمال المتميزة حقيقة وفعلاً، فيما يسمى الحدائة، هى التى تنتمى إلى هذا النوع الخالقى أكثر من غيرها، مع الاعتراف الأمين بأنه لا يوجد تصنيف سهل يعرف هذا النوع من الإبداع، وخاصة فى الشعر⁽¹¹⁾. ولكن هذا لا ينفى أن هذا النوع من الإبداع الخالقى الذى يكشف، ويقتحم، ويضيف، ويغامر بأشكال جديدة، ويخلق لغات ورؤى جديدة هو وارد فى أشكال أخرى، لا تنطبق عليها هذه التسمية -الحدائة- بشكل مميز (مثل ما ظهر فى دراستى لملمة "الحرافيش" لمحفوظ⁽¹²⁾)

.....

.....

(ونواصل غداً)

الخلاصة: المأزق - المواجهة - المخرج - المأزق

- [1] يحيى الرخاوى، كتاب "الطب النفسى والغرائز (1) غريزة الجنس" (من التكاثر إلى التواصل) و"غريزة العدوان" (من التفكير إلى الإبداع) منشورات جمعية الطب النفسى التطورى (2022)

- [2] تحديث محدود لمحاضرة "الغريزة الجنسية" ألقيتها فى منتدى أبو شادى الروبى (1998/12/15) ضمن نشاط محاضرات لجنة الثقافة العلمية: المجلس الأعلى للثقافة.

- [3] يحيى الرخاوى "تحرير المرأة وتطور الإنسان، نظرة بيولوجية" (1975) (المجلة الإجتماعية القومية، (12)، العددان (2-3)، (انظر أيضا ص 41، وما بعدها)

- [4] Winnicott (1958) Collected papers: D. W. Through pediatrics to psychoanalysis. London: Tavistock publications.

- [5] وهو مما قد نواجهه فى صورة واضحة فى الطب النفسى المهتم بدراسات السير الذاتية للمبدعين.

- يحيى الرخاوى، حركية الوجود وتجليات الإبداع، الفصل الثالث، "قراءة فى شهادات المبدعين والنقاد، ص320، المجلس الأعلى للثقافة، 2007

- [6] وقد أوجت هذه الملاحظة بفرض اقتراحته على إحدى طالباتى د. عزة البكرى، فقامت بعمل بحث ضمن رسالة دكتوراة فى الطب النفسى، لبحث التفرقة بين مظاهر العدوان السلبى والإيجابى فى مسار العلاج الجمعى رسالة دكتوراة، كلية الطب، جامعة القاهرة 1990 (غير منشورة).

El Bakry, Azza (1990) Depressive and Aggressive Phenomena in Group Psychotherapy. M.D.Thesis, Faculty of Medicine, Cairo University

- [7] وقد تحقق ذلك فى البحث المشار إليه فى الهامش السابق، بقدر ما تحقق فى بحث آخر (تحت إشرافى) فى نفس مجموعة العلاج الجمعى العميق والممتد:

نجاه النجراوى، (1981) "دراسة اكلينيكية فى بعض حالات البارانونيا من خلال أعراضها (محاولة توضيحية)". رسالة ماجستير. (تحت إشرافى أيضا) كلية البنات. جامعة عين شمس.

فى علاج بعض حالات اضطراب نمط الشخصية (وخاصة الشيزيدى منها، النوع الرقيق الحساس بوجه خاص) كان ما يتفجر من وراء هذه الرقعة بعد المرور "بالمأزق العلاجى" Therapeutic Impasse فى العلاج الجمعى خاصة: هو طاقة عدوانية وافرة لا يفسرها إلا التغيير الذاتى الجوهرى

أهم ما ساعدنى على اتخاذ موقفه نقدى مغامر من أية مقولة أو بحث أو معلومة مطبوعة أو شائعة مسلم بما مما كان مصدرها أو قائلها هو اجتيازى مرحلة الخوف من العدوان، إلى مرحلة التمكن من العدوان

إن غياب السلوك العدوانى من عمل ما، مثلما أوضحته مباشرة فى قراءتى لرواية "الأفيال" لفتحي خانم [9] لا يستبعد زخم طاقة العدوان التى احتواها

إن علاقة سمائه الكاتبج الشخصية، وخاصة فيما يتعلق

- [8] يحيى الرخاوى (1978) "مقدمة فى العلاج النفسى الجمعى: عن البحث فى النفس والحياة" دار الغد للثقافة والنشر، وتم تحديثه فى (2019) بعنوان: (مقدمة فى العلاج الجمعى: من ذكاء الجماد إلى رحاب المطلق)

- [9] يحيى الرخاوى: "قراءة فى مستويات وجدل الوعى البشرى .. من خلال النقد الأدبى" (2019) دراسة "الحلم .. القبر.. الرحم فى "الأفيال" لـ (فتحي غانم) (ص 81) - منشورات جمعية الطب النفسى التطورى.

- [10] يحيى الرخاوى: جريدة الدستور بتاريخ 17-5-2006 بعنوان: "الذكاء والغباء فى السياسة والحكم"!!

- [11] يحيى الرخاوى "رباعيات.. و..رباعيات" (2017) منشورات جمعية الطب النفسى التطورى.

- [12] يحيى الرخاوى: "دورات الحياة وضلال الخلود .. الموت والتخلق فى حرافيش نجيب محفوظ" مجلة فصول المجلد التاسع - العدد الأول والثانى. أكتوبر 1990 (ص 153-188) وأيضا - قراءات فى نجيب محفوظ" الطبعة الأولى (1990) الهيئة العامة للكتاب والطبعة الثالثة (2017) منشورات جمعية الطب النفسى التطورى

إرتباط كامل النص مع المقترحات:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD081022.pdf>

إرتباط كامل النص:

<https://rakhawy.net/%d9%85%d9%82%d8%aa%d8%b7%d9%81%d8%a7%d8%aa-%d9%85%d9%86-%d9%83%d8%aa%d8%a7%d8%a8-%d8%a7%d9%84%d8%b7%d8%a8-%d8%a7%d9%84%d9%86%d9%81%d8%b3%d9%89-%d9%88%d8%a7%d9%84%d8%ba%d8%b1%d8%a7%d8%a6-18/>

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقبيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsynet.com>

الكتاب السنوي 2022 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الثاني عشر)

الشبكة تدخل عامها 22 من التأسيس و 20 على الوجود

22 عاما من الضجيج... 20 عاما من المنجزات

(التأسيس: 2000/01/01 - على الوجود: 2003/06/13)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

كتاب " حصاد النشاط العلمي لمؤسسة العلوم النفسية العربية للعام 2021

التحميل من الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet-AIHassad2021.pdf>

الكتاب الذهبي لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2022 (الفصل السابع: من الكتاب السنوي للشبكة)

التحميل من الموقع العلمي

<http://arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynetGoldBook.pdf>

بالجانبة العدوانى فيها، تكاد
لا ترتبط مباشرة لا بنوع
الإبداع (خالق/ توألى)، ولا
بقدرته على تضمين عمله بما
هو سلوك عدوانى صريح

القتل فعل فارس،

حتماً بموت إن ظل،

لكن دس السموى نبض

الكلام

قتل جبان